أيدولوجيا كولونيالية تحكم موقف البطل من الشرق والغرب وتجعله مدافعا عن الثقافة الأوربية في شكلها الكولونيالي .

تحدد هذه الأيدولوجيا علاقة البطل بواقعه الاجتماعي وبأرضه فلسطين كعلاقة وهمية . وهم موضوعي لا إرادي ، فـ « جميل » يعتقد صادقا انه يرتبط بوطنه وبقضيته وعروبته . لكن هذا الصدق المحدد بثقافة مغتربة وبأيدولوجيا فردية يغرق الصدق في الوهم ، ويحيل « البطل » إلى ذات تبحث عن مصيرها الفردي ، ويجعل منها مبشرا للأفكار الغربية وآثارها المهدمة .

والآن ، كيف نبرهن على ما نقول ، وكيف تأخذ الأيدولوجيا السابقة تحديداتها المادية ؟. تكمن الاجابة في سطور الرواية . لنرجع إذن إلى الرواية .

لم يلغ التحديد المكاني والزماني للفعل الروائي خصوصية « جميل » في تفرده وعلوه ، وهو في تفرده يتابع سمات « امين » بطل « صراخ في ليل طويل » بشكل جديد وأكثر تحققا ، وفي متاهة الذات المتحققة تضيع جميع الدلالات الأخرى .

تلازم صورة الوطن مسار « جميل » كندب جرح قديم ، كطيف أو ذكرى أو كحلم تولى . وطن ـ ذكرى أو وطن ـ ذاكرة مسكون بالجمال والروعة : « مدينة واحدة أذكرها ، أذكرها طيلة الوقت . تركت جزءاً من حياتي مدفونا تحت أنقاضها . ص : ١٥ » . ما هي هذه المدينة التي تصبو إليها ذاكرة البطل ؟ : إنها القدس أو صورة معينة للقدس : « قدس الفضة ، يا قدس الذهب ، قدس الزمرد والبنفسج ..... يا قدسا سماؤها ياقوتة لا تنتهي . ص : ١٠٣ » ، « وراحت شوارع القدس تنسرح كلها أمامي ..... ، وتسكب وهج الفضة والذهب . ص : ١٠٤ » .

إن « قدس جميل » هي قدس الذهب والفضة والزمرد والبنفسج والياقوت . والذهب والفضة والمعادن الثمينة الأخرى عملات كونية، والكوني لا يتحدد بمكان أو زمان بل يتحقق بمعزل عنهما . وفي إطار الكونية والاستبدال يتوارى طيف « ليلى » التي دفنت تحت الأنقاض ويأخذ واقع « سلافة » مكان الطيف ، والطيف ظلال أثيرية والواقع حاضر محدد القسمات . ويستبدل « جميل » أخيراً ذهبا بذهب وتدخل « ليلى » في « عباءة » سلافة : « تلك الليلة حلمت أنني رأيت ليلى مرتدية عباءة سوداء كبنات بغداد . ص : ٤٢ » ، « وتابعتني عينا سلافة مثلما كانت تتبعني يد ليلى الميتة . ص : ١٢٤ ». يستمر جميل في صدقه ووهمه ، وهمه هو التعلق بتراب الوطن ، وصدقه هو أحلامه الفردية . يمزج الوهم بالصدق ولا يدري . لكن شكل علاقاته يعيد ترتيب العلاقات ، يتضاءل الصدق ويطفو الوهم ساطعا . الوطن ومأساته بداية الحياة والرواية ، وبعد البداية يدخل زمن آخر يلغي الزمن الأول . لذلك تنتهي حكاية الوطن في الصفحة « ٢٨ » . ينتهي الوطن وتبدأ حياة البطل الجديدة : « بعد الظهر أثرت المروحة ونمت . ص : ٢٨ » . تطرد المروحة وهج الظهيرة وصهد الذاكرة ، قد تطفو « ليلى » المهشمة أمام العين ، لكن الطيف لا يحرف المسار الذي يعرف نهايته :

ـ « أريد أن أتعرف على شعرائكم ، وصحفييكم ، وسياسييكم ورساميكم . ص : ٣٩ » .